

منهجية تعليمية النصّ الأدبي من خلال الكتاب المدرسي

قاسم قادة بن الطيب

المركز الجامعي تيسمسيلت، الجزائر.

الملخص: للنصّ الأدبي الدور البالغ في عملية التأثير على المتعلم سواء أتلّق الأمر في بنائه اللغوي أم في مضمونه الوجداني العاطفي، وحتى نبني متعلماً جامعاً بين الأثر اللغوي والأثر الانطباعي الذي يُخلفه النصّ الأدبي تسعى المناهج التعليمية إلى انتقاء النصوص التي تخدم الجانب اللساني للتعلم ووجدانه، وعلى إثر تنفيذ ذلك تتم تنشئة المتعلم، فتعمل بذلك على تقويم لسانه، وتقوية عواطفه وأحاسيسه بمضمون النصوص المختارة التي هي في الأصل الرافد القويم للجانبين. في ظلّ هذا التأثير المكنون في النصوص المبرمجة تتشكل شخصية المتعلم اللسانية والوجدانية، وكثيراً ما تُصدر الأحكام في هذا الشأن والمنتبّع لتعليمية النصّ الأدبي من خلال الكتاب المدرسي الجزائري بقف على حقيقة مفادها أنّ للنصوص المبرمجة الأثر البالغ في بناء المتعلم، فما طبيعة تلك النصوص؟ وما علاقتها بنظرية التعليم؟

الكلمات المفتاحية:

التعليمية - النصّ الأدبي - المنهاج - الكتاب المدرسي - البناء الفكري -
التشكل الوجداني - اللساني

تقديم:

إنَّ اختلاف الرُّؤى في نظرة الناس للعالم الخارجي مَنبَعها خصوصية تلك النظرات، فالكل ينظر من زاويته ومِمَّا هو عليه من قوى داخلية ومكتسبات بيئية، ولا زال الناس في اختلاف ولا يزالون كذلك في أمرهم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾⁽¹⁾ ومن المجالات التي تتضح فيها صورة الاختلاف وتتأكد بشيء من السفور ما نقف عليه في عالم الأدب والفكر، وما يتضمنه من إبداعات، فامرؤ القيس مثلاً عبَّر عن مُبتغاه شعراً وفي أغراض شتى، وهو القائل في وصف فرسه:

لَهُ أُبْطَلَا ظَبْيِي وَسَاقًا تَعَامَةً وَإِرْحَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبُ تَنْفَلٍ
كَأَنَّ عَلَى الْكِنْفَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى مَدَاكَ عَرُوسٍ أَوْ صِرَايَةَ حَنْظَلٍ⁽²⁾

بينما حلا لقس بن ساعدة الإيادي أن يُعبِّر عن رؤاه بخطب، ومن جاء بعده من خطباء العصر الإسلامي والأموي حيث "أصابت الخطابة العربية حظها الأوفى من الرقي والنضج والازدهار في عصر بني أمية، وتألقت نجمها فيه أي تألقت"⁽³⁾ نتيجة تغيُّر الظروف ومناسبتها في تحقيق إقناع الغير.

ومن الذين اختاروا لونا آخر للتعبير بديع الزمان الهمداني الذي "تأنق في أسلوبها"⁽⁴⁾ وبها نبه الغافلين لما يحدث في مجتمعه من مكر وحيل مُستهدفاً بكتاباتهِ إحياء اللُّغة العربية من خلال توظيف مهجور اللفظ.

إنَّ هذه العينة من الأمثلة تجسيد حقيقي لفعل التنوع في مجال الإبداع القولِي، وترجمة حقيقية لاختلاف أساليب التعبير عن الرؤى، كما أنها بيان وتمثيل لاختلاف بنيات النصوص الأدبية شكلا ومضمونا، وهي بذلك تختلف عن بعضها البعض في بنياتها اللسانية وتضمناتها الفكرية وتشكلاتها الوجدانية، ولأهميتها في التأثير على الناشئة اهتم ولا يزال يهتم الفعل التعليمي بدراسة النصوص وتحليلها.

المناهج التعليمية والنص الأدبي

لقد اهتمت المناهج باعتبارها الإطار المنظم للعملية التعليمية بالنص، وهي تعتمد في كل مراحل التعليم لما له من اثر بالغ في تكوين المتعلم لسانيا وفكريا ووجدانيا، لذا فهي تمثل نصف ما توصل إليه الفن الأدبي وانسجامه الذي ينبغي أن "يتحقق على المستوى اللغوي والعالمي والزمني والهدفى"،⁽⁵⁾ ولما كانت هذه المستويات التي يتضمنها النص الأدبي محل تأثير في القارئ ازدادت حاجة المناهج التعليمية في التعامل معها كونها "بنية دلالية تنتجها ذات في إطار بنيات ثقافية واجتماعية محددة"،⁽⁶⁾ فالنص من هذا المنطلق تجسيد لأثر مثبت كتابي وهو في الوقت نفسه ما ارتبط بحدث زمني ومكاني كما يهدف في أقصى غاياته إلى تبليغ تجارب، وتقريب معارف من القارئ، فهو إذاً يهدف إلى إحداث تواصل شامل بين الطرفين أحدهما مؤثر وثانيهما متأثر.

إن النص كبناء فني لا تُكتسب أفكاره وأبعاده إلا بشرحه وتعليمه، ولا تنعكس جماليته إلا فيمن مرس عليه تلقينه، فالنص بنية ساكنة ويمكن رؤيتها متحركة إذا علمناها للناشئة وفق مراحل بيداغوجية مثلى، بهذا الاحتكاك بين المتعلم والنص يتحقق عنصر التفاعل بينهما، وهو ما تهدف إلي تحقيقه تعليمية النص الأدبي، من خلال هذا الفعل يتفاعل القارئ مع فكرة النص ولغته وعواطفه، رغم اختلاف كثير من المعطيات بين الكاتب والقارئ: ثقافيا، زمانيا، اجتماعيا. .. الأمر الذي يُعطي للفعل التفاعلي مع النص تولد رؤى جديدة ومعاني جديدة، فالنص المكتوب من هذا المنطق "يسعى إلى ربط علاقة بين طرفين مجهولين، وعنصرين غير مُحددين: المؤلف وتوقعاته ومواقفه تجاه السلوك المرتقب للقارئ، والقارئ وفرضياته حول النوايا الحقيقية للمؤلف"⁽⁷⁾

تعليمية النص الأدبي

إن المُتَّبِعَ لتعليمية النص الأدبي في المنظومة التعليمية الجزائرية يقف على تنوع برمجته في المستوى الواحد من فترة إلى أخرى بناء على تغيير، أو إصلاح، أو مساندة لجديد بما توصلت إليه نظريات الديدكتيك في المجال، وليبان ذلك وإثباته سأنتبع عيّنات من نصوص أدبية لمستوى واحد⁽⁸⁾ قصد تقصي محتواها وبيان مدى أثرها في بناء مُتعلِّم مُتَحَكِّم في الموروث اللساني، ومُتَشَبِّع بأفكار المحتويات وعواطفها، وإن كان لا يُمثّل مطلق التأثير نتيجة وجود عناصر أخرى في المجتمع والبيت التي لهما من التأثير في بناء شخصية المتعلم.

إن الأصل في تعليم اللغة أي: بناء الملكة اللسانية هو أن نستهدف مُتعلِّمها من خلال نصوص "وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب"⁽⁹⁾ وعلى ضوء ما يقرؤه من تأليف الكلام القائم في النصوص الأدبية تكن استفادته، والمتأمل لمحتويات النصوص الأدبية بعد تحليلها الذي يقتضي "قراءة النص (الموضوع) ككل للتعرف على الفكرة الأساسية فيه.

- قراءة وحدة العينة، وتحديد الفكرة، ووحدات التحليل التي تتضمن قيماً.

- تعيين صنف القيمة في كل فكرة.

- تفريغ نتائج التحليل في جداول التحليل، وذلك بإعطاء تكرار واحد لظهور أي قيمة من القيم"⁽¹⁰⁾

إن الذي يمكن أن نستخلصه من النصوص المتعلّمة في كل الأطوار ما يلي:

- تنوع أجناسها: قرآن - حديث - شعر - نثر.

- ملاءمتها لمستوى التلاميذ الفكري، ومسايرتها لنموهم العقلي.

- تحقيقها لمبدأ الارتقاء بالمتعلم لسانياً، فكرياً، وجدانياً.

- احتواؤها على عناصر النص الأدبي من خلال تجليات: - الأفكار - الأسلوب - العواطف.

وإذا أردنا أن نفضل في هذه الأحكام فعلياً أن نتبع تعليمية النص الأدبي من خلال ما هو مُنبت في كتاب المتعلم حسب كل مرحلة من مراحل التعليم:

أولاً: تعليمية النص الأدبي من خلال كتاب المختار في القراءة واللغة

إن ما تميزت به تعليمية النص الأدبي في كتاب المختار ضبطها للمراحل في الخطوات التالية" عنوان النص - صاحب النص - شرح الكلمات للمناقشة- للإتشاء" (11)

وفق هذه الخطوات لا أكثر كانت تُنجز تعليمية النصوص الأدبية، فالمتعلم لا يشتغل إلا بما له علاقة بالنص، وما يتصل به من تبعات الأمر الذي ينتج عنه ثبات المعرفة المدرسة نتيجة محدودية الروابط التي على ضوءها تتم تعليمية النص، وهي في مجملها تسير في فلكه حيث تُمكن ارتباط المتعلم به، فيسهل تموقعه ضمن لغته وأفكاره وعواطفه.

إذا أردنا أن نقف وقفة تأمل لمجال تسييرها من خلال ما يتصل بها كأساس، فحري بنا أن نلتفت إلى العناصر التالية :

أ- شرح الكلمات: وقد اعتمدت في غالبها على الشرح السياقي، وذلك من خلال ربط الكلمة بجو النص الأمر الذي يُمكن المتعلم من القهم السريع لفكرة النص نحو: "الجلس: مشاركتك في الجلوس، وهو هنا الصديق" (12)

ب- إن أبرز ما يميز فحوى الأسئلة الخاصة بالمناقشة هو تنوعها، وشموليتها وسهولة لغتها، قصد تحقيق ربط المتعلم بفكرة النص وفهمه لها، كما تسعى هذه الشبكة التقويمية في كثير من محطاتها إلى إقحام المتعلم واعتبارها طرفاً في ذلك نحو: "هل أعجبتك خلال الرجل؟ وهل تريد أن تسيير عليها؟ ولماذا؟" (13)

الأمر الذي يدفع بالمتعلم إلى إسقاط فكرة النص على ذاته، والتحلي بما ينفعه، وطرح ما يضرُّ به كمواطن صالح.

ت- الإنشاء: ولتثبيت ما تعلمه المتعلم في النص الأدبي، وقصد تمكينه من توظيف تلك المعرفة تُذيل تعليمية النصِّ بما يدفع المتعلم إلى إثبات امتلاك المعرفة في المجال المدرَّس فيه، أو فيما هو قريب منه، وذلك لدفع المتعلم إلى البحث والمطالعة نحو: "سيدنا عمر - رضي الله عنه - مواقف تستحق الإعجاب. أذكر موقفاً منها،" (14) وباستمرارية العملية التعليمية وفق هذه المنهجية للأشكال الأدبية اكتسب المتعلم لساناً سليماً من خلال نسق الأسلوب التي تضمنتها تلك النصوص، وأفكاراً ووجهت قيمه الأخلاقية اتجاه الحسن.

كما تبقى أبرز ميزة مكنت من تأثير تعليمية النص الأدبي في تعلم تلك الفترة مسابرة الفعل التعليمي للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والنفسية الأمر الذي نتج عنه تجلي أفكار تلك النصوص بالمنهجية المعتمدة في تحليلها على سلوكيات المتعلمين لسانياً وفكرياً ووجدانياً، وهكذا فتعليمية النص الأدبي الناجحة لم تعد محصورة في فك رموز النص، وسرعة قراءته بل إلى تفاعل القارئ مع النص المقروء لتصبح عملية مُعقدة تستلزم الفهم والاستنتاج والنقد، وغيرها من العمليات العقلية. (15)

ثانياً: تعليمية النص الأدبي من خلال كتاب القراءة والنصوص العربية

إذا سلمنا بما اعتمده تعليمية النص الأدبي والتي قد يُحكم عليها بالنجاح، فليس معنى ذلك لطبيعة النص فحسب، وإنما بتضافر عناصر أخرى أدت إلى نجاح تعليميته منها: ظروف المتعلم وقابليته لحب المعرفة التي كان وراءها المعلم والمجتمع ككل.

إنَّ الملاحظ لحقل تعليمية النص الأدبي في التسعينات يقف على شيء من التحوير في المحتوى والطريقة، وهذا شيء طبيعي يحصل في كثير من المنظومات العالمية، ومن عناصر الإستراتيجية الواردة فيه أنه ركز على "استكمال المعارف اللغوية، والتدريب على فهم ما يقرأ، وترتيب الأفكار، واكتساب القدرة على التحليل والتخلص"،⁽¹⁶⁾ والملاحظ لتعليمية النص الأدبي في هذه الفترة يستخلص أنَّها كانت تُركِّز على تمكين المتعلم من الفهم والتحليل بالدرجة الأولى، حيث يُقحم المتعلم في جملة من الأسئلة قصد تحقيق الفهم العام للنص، وعلى ضوءها تتحدَّد له (جملة) الأفكار الأساسية والفكرة العامة، وهي تدخل في إطار الفهم ودفع المتعلم إلى التعبير وهي في عمومها مباشرة، الهدف منها تذليل النص وتأتي وفق مرحلة مرتبة على النحو التالي: "أ- الفهم العام - ب- الأفكار الأساسي - ج- الفكرة الرئيسية"،⁽¹⁷⁾ وأحياناً يُطلب من المتعلم أن يُعدَّ أعمالاً تحضيرية،⁽¹⁸⁾ وهو ما يُفعل نشاط المتعلم خارج الصَّف.

ومن مراحل تعليمية النص في هذه المرحلة ما له علاقة بتطويع النص والمتمثل في شرح المفردات، وقد أخذت أساليب متنوعة منها أن يختار المتعلم ما له علاقة بمعنى النص، ومن أمثلة ذلك "اليوم المشهود: يوم القيامة - يوم الجمعة - اليوم الهائل"⁽¹⁹⁾

كما يُطلب أحياناً من المتعلم أن يُنجز عملية الشرح بمفرده نحو: "اشرح المفردات الآتية، أو هات مترادفاتهما"⁽²⁰⁾ الفعل الذي يُحفِّز المتعلم على الاكتساب المعرفي.

كما يركز في نصوص أخرى على تفادي الشرح والولوج بالمتعلم إلى عنصر من عناصر الشرح المعجمي والمتمثل في التعرض لمشتقات المفردة نحو: "مِمَّ اشتقت الألفاظ التالية.. الخ "

ولا تتوقف عملية التحليل عند هذا الحد بل تتواصل لتشمل مجال التعبير وقواعد اللغة المختلفة، ومن مميزات هذه النصوص أنها تتمحور وفق مجالات، ويُذبل كل مجال بنص للمطالعة وذلك لتوسيع مدارك المتعلم في مختلف جوانب التعلّم.

ثالثاً: تعليمية النص الأدبي من خلال كتاب اللغة العربية

لقد كان للإصلاح التربوي الأثر البارز في تحويل تعليمية النص الأدبي نتيجة اعتماد المنهاج على مقاربة جديدة "الكفاءات" حيث "يدع المتعلم إلى الملاحظة والممارسة وحلّ المشكلات، مقدماً له الأسئلة والتوجيهات الضرورية التي تساعده على التحصيل بمفرده إن أراد،" (21) والحقيقة أن مثل هذا المنحى جدير لما يستهدفه من تطوير في المجال ولكن تلزمه خصاصة أرضية المتعلم الذي ينبغي أن يكون مهياً وراغباً في بناء المعرفة الجديدة، لأن بدون ذلك لا يمكن أن نحقق كفاءة الفعل التعليمي.

إن تعليمية النص الأدبي في هذه المقاربة هي الأساس الذي يقوم عليه تعلم مواد اللغة و"يتجسد ذلك من خلال الانطلاق من نص محوري تدور حوله كل النشاطات من قواعد وإملاء، وتعبير شفوي وتعبير كتابي فضلاً عن الوقفات المتكررة عن مسائل تتصل بأسرار اللغة،" (22) فالمقاربة نصية أي: من النص ندخل إلى مستويات اللغة، وتعليميته تقتضي جملة من المراحل: تمهيد للنص، ثم قراءة النص، فمرحلة فهم النص وهي عبارة عن أسئلة متنوعة شاملة لمحتوى النص قصد تطويعه وتذليله، وتلي ذلك ملكة اللغة وبناء المتعلم في الجانب المعجمي الذي يمتاز عن سابقه حيث يدفع بالمتعلم إلى البحث والتجريب نحو: "استخرج من النص الألفاظ التي تنتمي إلى الحقل المفهومي: جسم الإنسان مثل رأس - صدر - بطن" (23) وعموماً فما يلاحظ على نصوص هذه المقاربة: التنوع

وطول بعضهما : وهي في بنائها وطريقتها تسعى لتصنع من المتعلم مُلمّاً بجوانب شتى بما في ذلك الجانب العلمي في النص الأدبي من خلال إقحام نصوص عدة في هذا المجال، الأمر الذي لا يخدم طبيعة المادة في إطارها العام، وهو ما نقف عليه في النصوص التي تخدم المنحى العقلي كذلك التي نقف عليها في العناوين التالية: "النبات ص 58- القمر -60- البراكين ص74..."

مثل هذه النصوص جديرة من أن تعتمد كمدخل في مواد أخرى، وهي بذلك تُحقِّق المقاربة العرضية بين الأنشطة: علوم - جغرافيا - فيزياء.. ..
قد يتبادر إلى الواحد منا جملة من الأسئلة عن مدى فعالية النص الأدبي في هذا الجبل، ومدى تأثيره في لسان ولغة أبنائنا، وعن مدى تأثيره في أفكارهم، وفي عواطفهم.

والحقيقة أن تأثير النص الأدبي مُرتبطة بجملة من العناصر منها: مدى استعداد المتعلم لتقبله فعل التعلّم، ومدى فاعلية الأستاذ في تقديمه للنشاط هذا فضلاً عن مدى ارتباط النص بالظروف التي يحباها المتعلم وبيئته... الخ
وعموماً فالنص الأدبي يبقى نصاً أدبياً إن لم نكتشف تأثيره الآني في المتعلم، فسيأتي اليوم الذي تتجلى فيه آثاره اللسانية، والفكرية، والوجدانية إن مارس ممارسة بيداغوجية، وهو ما ينبغي أن يحصل خاصة في يومنا هذا الذي أصبحت فيه جملة من الوسائل إعلامية تنافس ما تبنيه تعليمية النص الأدبي.

مراجع البحث:

- بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقامة الصحفية، مصطفى الشكعة، دار الزائد العربي، بيروت لبنان 1979م
- خلف نصر الهيني، القيم النمائية في صحافة الأطفال القرآنية، سلسلة دراسات 144، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق 1978م.

- ديوان امرؤ القيس بن حجر الكندي، تصحيح ابن أبي شنب، وزارة الثقافة الجزائر 2007م.
- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي بيروت 1989م.
- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار النشر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر، ط1، 1991م.
- كتاب اللغة العربية للسنة الثانية من التعليم المتوسط، إشراف بدر الدين بن تويدي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2007 - 2008م .
- كتاب المختار في القراءة واللغة الثانية من التعليم المتوسط، إشراف عبد الرحمن شيبان، منشورات المعهد التربوي الوطني الجزائر 1977 - 1978م.
- كتاب القراءة والنصوص العربية الثامنة من التعليم الأساسي، إشراف موهوب حروش، المعهد التربوي الوطني الجزائر onps 1999 - 2008م.
- محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز) المركز الثقافي العربي، ط3، 2006م.

Toraille. R.et collaborateur, psychopédagogie pratique istra, paris 1973 ,.

Vigner G. lire : du texte au sens « éléments pour un apprentissage et un enseignement de la lecture C.L.E, paris 1979.

1 - سورة هود، الآية 118.

2 - ديوان امرؤ القيس بن حجر الكندي، تصحيح ابن أبي شنب، وزارة الثقافة الجزائر 2007م، ص86.

- 3- الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، ط2، دار المعارف مصر 1969م، ص05.
- 4 - بديع الزمان الهمذاني رائد القصة العربية والمقامة الصحفية، مصطفى الشكعة، دار الزائد العربي، بيروت لبنان 1979م، ص247.
- 5 - محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز) المركز الثقافي العربي، ط3، 2006 م ص31.
- 6 - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي بيروت 1989م، ص32.
- 7 - Vigner G. lire :du texte au sens « éléments pour un apprentissage et un enseignement de la lecture C.L.E, paris1979 p10.
- 8- لقد وقع اختياري على نماذج من نصوص مستوى الثانية متوسط، باعتبار المرحلة تمثل تعلمًا وسطا بين المستويين الابتدائي والثانوي، وتتبعُ سيرَ تعليمها لما لهذا الأخير من تأثير في اكتساب مكنونها، وقد تناولتها من الكتب المدرسية الخاصة بالمستوى، وهي:
- كتاب المختار في القراءة واللغة الثانية من التعليم المتوسط، إشراف عبد الرحمن شيبان، منشورات المعهد التربوي الوطني الجزائر 1977 - 1978م.
- كتاب القراءة والنصوص العربية الثامنة من التعليم الأساسي، إشراف موهوب حروش، المعهد التربوي الوطني الجزائر onps 1999 - 2008م.
- كتاب اللغة العربية للسنة الثانية من التعليم المتوسط، إشراف بدر الدين بن تويدي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2007 - 2008م.
- 9 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار النشر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر، ط1، 1991م، ص632.
- 10 - خلف نصر الهيني، القيم النمائية في صحافة الأطفال القرائية، سلسلة دراسات 144، منشورات وزارة الثقافة والفنون، العراق 1978م، ص63.
- 11 - كتاب المختار في القراءة واللغة، إشراف عبد الرحمن شيبان، ص9-10.
- 12 - المرجع نفسه، ص08.
- 13 - كتاب المختار في القراءة واللغة، إشراف عبد الرحمن شيبان، ص34.
- 14 - المرجع نفسه، ص36.
- 15 - Toraille. R.et collaborateur, psychopédagogie pratique istra, paris 1973, P11.

- 16 - كتاب القراءة والنصوص العربية، السنة الثامنة أساسي، إشراف موهوب حروش، ص30.
- 17 - المرجع نفسه، ص 6.
- 18 - المرجع نفسه، ص 11-19.
- 19 - المرجع نفسه، ص63.
- 20 - كتاب القراءة والنصوص العربية، السنة الثامنة أساسي، إشراف موهوب حروش، ص153.
- 21 - كتاب اللغة العربية للسنة الثانية من التعليم المتوسط، إشراف بدر الدين بن تويدي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2007 - 2008 م، ص تقديم.
- 22 - المرجع نفسه، ص تقديم.
- 23 - المرجع نفسه، ص53.